الفصل الأول
مع ذكرى الإسراء والمعراج
أشعار وآلام وآمال

● فى ليلة السابع والعشرين من رجب تُعاودنا ذكرى معجزة الإسراء والمعراج وتلح على أبناء أمة التوحيد أن أفيقوا واستيقظوا ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، ولقد صدت قريش عن دعوة الحق وأوقعت بالنبى مختلف صنوف العذاب ولم يهون عليه سوى إصراره على تبليغ كلمة الله حتى لو واجه العالم بأسره، ووضعوا الشمس فى يمينه والقمر فى يساره على أن يترك كلمة الله ورسالته إلى بنى الإنسان، وكان دعم الزوجة الصالحة السيدة خديجة أم المؤمنين ومن ورائها رهطها الصالح وعمه صلوات الله وسلامه عليه أبو طالب بن عبد المطلب ... ولكن ماذا تراه صانعا وقد تُوفي النصيران المهيبان المحبان المخلصان فى عام عرف بعام الحزن؟! الأفق من حوله - ﷺ - تلبد بالغيوم، غيوم اليأس والصد عن سبيل الله وبخاصة عقب عودته من الطائف وقد ساومه كبراؤها على مبدأ العقيدة لدنيا يطمعون فيها ولا يُسمح للنبى - صلوات الله عليه - بالعودة إلى مكة إلا فى جوار مشرك من مشركى مكة!! أو هكذا يكون شأن النبى؟! ويضرع - صلوات الله وسلامه عليه - إلى ربه الرؤوف الرحيم «اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس. يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى؟! إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى، غير أن عافيتك هى أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بى سخطك أو ينزل بى غضبك ... لك العتبى حتى ترضى».

ويهتز للضراعة النبوية عرش الرحمن وتضج الملائكة بالدعاء للقوى الرحيم المتكبر العزيز الجبار أن ينصر نبيه وأن يرق له ويعطف عليه وتتوالى البشائر ويجعل الله بعد العسر يسرا وتتحقق معجزة الإسراء والمعراج حيث يربط الله على قلب نبيه ويريه من آيات ربه الكبرى ويرى بعين اليقين بشائر التأييد الإلهى لدعوته بتمام نعمته وكمال رسالته ثم ينطلق ويسير حتى يتم تبليغ كلمة الله ويبشر بفتح كنوز كسرى وقيصر وبلوغ كلمة التوحيد آفاق المعمورة فى شرقه وغربه.

● يُسرى برسول الله إلى بيت المقدس ويصلى بالأنبياء فى المسجد الأقصى ويُعرج به – صلوات الله وسلامه عليه – إلى سدرة المنتهى ليصير من ربه قربا ومكانة وإعزازا وتقديرا «قاب قوسين أو أدنى» ويريه ربه من آياته الكبرى لتأكيد ريادته ومكانته وإمارته للأنبياء وسيادة المرسلين وآخر رسل الله للبشر أجمعين بالحنيفية السمحاء، وتُفرض عليه الصلاة فى أعلى عليين لتأكيد الدلالة الربانية التى ترمز إليها الصلاة فى كونها صلة العبد بربه ومعراج المؤمن إلى الملكوت الأعلى بدون واسطة أو شريك ويعود النبى الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – ولم يزل فراشه دافئا كما تحدثت بذلك عمته وقد قضى تلك الليلة المباركة فى بيتها وتتحقق المعجزة! وفى اليوم التالى يخبر الناس بما شاهد وحَدَث فيزداد المؤمنون الصادقون إيمانا ويُفتن ضعاف الإيمان فيرتد بعضهم عن دينه ويسخر الملأ من المتكبرين.

● والمعجزة أمر خارق لنواميس الطبيعة فلا مجال لحذلقة المتحذلقين الماديين للزعم بأن النبى – صلوات الله وسلامه عليه – قد حدث له ذلك مناما فى رؤيا، ولو حدث ذلك لما كانت هناك معجزة ولما احتاج المكذبون لإنكارها ولما ارتد البعض، وتؤكد سورة الإسراء أن «الإسراء والمعراج» بشخص النبى روحا وجسدا فقال تعالى فى التنزيل العزيز ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**

الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] حيث تفتتح السورة بالمصدر ﴿سُبْحَانَ﴾ للتنزيه المطلق لقدرة الله التى هى فوق الشك والتهم، وأسرى (بعبده) تؤكد أن الإسراء والمعراج كان للنبى بشخصه روحا وجسدا، وفى تأكيد وقع الحدث على ضعاف الإيمان قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، وتؤكد سورة النجم رحلة المعراج حيث أعرج بالنبى من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى فيقول تبارك وتعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١ – ١٨]

● وتفيض معجزة الإسراء والمعراج بالدروس والعبر التى يستلهم منها أبناء أمة الإسلام والملة السمحاء ما يبدد حيرتهم ويخرق أستار اليأس فى دروب حياتهم التى تعج بالتحديات والصعاب المتجددة وتلفتهم إلى الآمال التى تولد فى رحم الآلام ويجعل الله بعد عسر يسرا وليعز الله دينه وينطلق الموحدون يصوغون لبنى البشر عالما جديدا تسود فيه شريعة قوة الحق، ويذوق فيه الإنسان طعم الإنسانية الحقة والحرية الحقيقية.

● وينفعل الشعراء بالحدث المعجزة، الذى صار مقبولا عقليا بعد الإيمان به دينا وعقيدة فى ضوء الاكتشافات العلمية وإنجازات العقل الإنسانى فى مجال الفضاء والكواكب وعلوم الاتصال، ويسجل لنا تاريخ الأدب العربى فى نصوصه الأدبية ما يتناسب ومكانة المعجزة، وما يليق بها من حفاوة فى ضمير الشاعر المسلم وحسبنا وقفة مع أنموذجين فقط.

معجزة الإسراء والمعراج
فى عيون الشعر العربى

لقد كان تأثر الشاعر المسلم بمعجزة الإسراء والمعراج كبيرا، وظل يقين الإيمان بالمعجزة الإيمانية نابضا بالإبهار والإثارة والتشويق وطفق شعراء الأمة يتغنون بعظمتها ودلالتها ويستلهمون قيم الحق والصبر والإيمان والطموح واليقين من أحداثها ومقدماتها وآثارها بحثا للتفاؤل والأمل ودفعا لليأس والملل.

ومن أبرز الأمثلة الشعرية التى اشتملت على ذكر معجزة الإسراء والمعراج بين ثناياها قصيدة « البردة المباركة » للإمام محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى المشهور بالبوصيرى نسبة إلى قرية بوصير من أعمال محافظة بنى سويف من قرى صعيد مصر (٦٠٨ هـ ٦٩٥ هـ)، ومن بعد قصيدة (البردة) تأتى قصيدة (نهج البردة) لأمير الشعراء أحمد شوقى (١٨٦٩ م – ١٩٣٢)، وقصائد أخرى كثيرة لشعراء مبدعين فى مختلف العصور الأدبية وفى عصرنا الحديث فضلا عن شوقى كثيرون ممن نظموا القصائد المفردة فى تسجيل فجر الإسلام وضحاه وعصره وعظمة النبى صلوات الله وسلامه عليه – والإشادة بمعجزاته فى أدب العربية بخاصة وأدب اللغات الإسلامية بعامة وحسبنا الإشارة إلى معارضة البارودى للبردة وإلى الإلياذة الإسلامية للشاعر أحمد محرم.

ولكن يبقى لقصيدة البردة بريق خاص إذ ينظمها شاعرنا الإمام فى مائة وستين بيتا تقريبا على غرار قصائد الأدب العربى الغر الطوال مستفتحا إياها بذكر الأحبة وبث الشوق إلى الديار ثم ينتقل إلى تهذيب النفس وتربيتها على طاعة الله والتسامى على الرذيلة وطاعة الشيطان ويمضى متنقلا من فكرة إلى فكرة فيصف أخلاق النبى – صلوات الله وسلامه عليه – وفضله على جميع الأنبياء ومعجزاته وبشائر مولده وجهاده وهجرته وحفظ الله تعالى – إياه فى الغار ويقف

أمام معجزة القرآن معجزة النبى الشماء الغراء ثم يقف وقفة خاصة أمام معجزة الإسراء والمعراج ثم يصف قوة الإسلام بنبيه – عليه الصلاة والسلام – ورجاله فى شجاعتهم وفروسيتهم ثم يختم بعتاب النفس والندم على الذنوب والمعاصى راجيا شفاعة النبى – ﷺ :

إن آت ذنبا فما عهدى بمنتقض ... من النبى ولا حبلى بمنصرم
فإن لى ذمة منه بتسميتى ... محمدا وهو أوفى الخلق بالذمم

ويختم قصيدته العصماء ببعث الأمل فى رحمة الله وعفوه ومغفرته وبالدعاء الضارع والصلاة على النبى – صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

ولقد كُتِبَ لقصيدة (البردة) الذيوع والانتشار وترجمت معانيها إلى كثير من اللغات الشرقية والغربية ونشط الكثير من كبار الشعراء لمعارضتها حفاوة لما فيها من بديع المعنى ورصين العبارة وجزيل اللفظ وصدق العاطفة وكذلك أقبل عليها بعض الزهاد والعباد يرددونها فى بيوت الله كدعاء يضرعون به إلى الله – تعالى – رجاء تفريج الكربة وأملا فى شفاعة النبى المصطفى الكريم صاحب الشفاعة العظمى – صلوات الله وسلامه عليه (ومطلع البردة) :

أَمِنَ تَذَكُّر جيران بذى سلم ... مزجت دمعا جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة ... وأومض البرق فى الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا ... وما لقلبك إن قلت استفق يهم

والاستهلال كما هو واضح ببكاء الديار وذكر الأحبة وهو موجه إلى ديار الحبيب النبى – ﷺ – والأحبة محمد وصحبه وأهل بيته ومن المواضع المذكورة (ذى سلم) جبل شرقى المدينة المنورة. و(كاظمة) اسم موضع بالمدينة (إضم) اسم الوادى الذى يضم المدينة المنورة، وهكذا نحن مع الإمام البوصيرى فى قصيدته (البردة) أمام شاعر عالم عابد يتدفق حبا للنبى ودينه وشريعته وأنصاره

وقد كان وراء قصيدته العصماء مبنى ومعنىً تلك العاطفة المتفقة بحب الإسلام ونبى الإسلام – صلى الله عليه وآله وسلم – و(صادق الحب يملى صادق الكلم) كما عبر شوقى فى (نهج البردة) .

● ومن ثم يتضح الفرق بين الإمام فى بردته وشوقى أمير الشعراء فى (نهج بردة) حيث تعكس قصيدة (نهج البردة) ثقافة شوقى وعصره وفنه وصنعته كما عكست قصيدة البوصيرى ثقافته وعلمه وصلاحه ودينه وورعه حتى أنه يتقرب إلى الله بشعره فى حب النبى ﷺ ودينه وتخليد جهاده وزهده وينتصر لشريعته ويصلى عليه ويستشفع به ليرفع الله ما نزل به من ضر فيستجيب الله دعاءه ويرق لضراعته فيكشف ما نزل به من ضر وسقم – وكان قد أُصيب بالفالج أو مرض الشلل كرامة لدينه وشرعه ومحبته الخالصة للنبى – ﷺ – وفى هذا يقول شوقى :

المادحون وأرباب الهوى تبع ... لصاحب البردة الفيحاء ذى القدم
مديحه فيك حب خالص وهوى ... وصادق الحب يملى صادق الكلم
الله يشهد أنى لا أعارضه ... من ذا يعارض صوب العارض العرم
وإنما أنا بعض الغابطين ومن ... يغبط وليك لا يذمم ولا يلم

● وإذا كنا نسلم فى مجال الدرس الأدبى والنقدى أن الأدب مرآة الحياة وأن الأديب أو الشاعر مرآة عصره فليس من العدل مقارنة قصيدة (نهج البردة) لأمير الشعر والشعراء وقد نظمها بعد (بردة) الإمام البوصيرى بنحو سبعة قرون وإنما الإنصاف أن توضع كل قصيدة فى سياق عصرها وثقافة مبدعها وبيئته وعصره ولا يمنع ذلك من التأكيد على ريادة البوصيرى وقوة بنائه وتمكنه فى مجال الفصاحة اللغوية والثقافة التاريخية والإسلامية والتأثر بالقرآن الكريم ويأتى مع ذلك ومن قبله ومن بعده قوة العاطفة والصدق الشعورى لدى البوصيرى الأمر الذى جعل من البردة نصا دينيا وروحيا شفافا يدعو بها الداعون ويبتهل بها المبتهلون ويستشهد بدررها الكاتبون

والناقدون، ثم يأتى نص أمير الشعراء لينبئ فى وضوح عن شاعر ملك ناصية البيان، وأحرز قصب السبق فى امتلاك ناحية الفن والصنعة، وتعكس قصيدة نهج البردة التى نظمها أمير الشعراء فى نحو مائة وتسعين بيتا عمق ثقافة الشاعر التاريخية والإسلامية والمعاصرة وامتيازه فى الصنعة وسلاسة التعبير وبراعة التصوير وهو يدرك ذلك ويذكره وإن كان يتواضع أمام ريادة صاحب البردة، يقول شوقى:

يزرى قريضى زهيرا حين أمدحه ولا يقاس إلى جودى لدى هرم

وتأتى قصيدة (نهج البردة) كما يدل عليها عنوانها معارضة للبُردة فهى تطرق نفس المعانى وتبدأ بدايتها وتفوقها فنا وصنعة ومطلعها:

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم
رمى القضاء بعينى جؤذر أسدا يا ساكن القاع أدرك ساكن الأجم

● وسيتضح امتياز شوقى فى الفن والصنعة بعد تقديم تصوير البوصيرى وتعبيره فى(بردته) المباركة عن معجزة الإسراء والمعراج. يقول البوصيرى فى (البردة) مخاطبا النبى ﷺ:

سريت من حرم ليلا إلى حرم كما سرى البدر فى داج من الظلم
وبت ترقى إلى أن نلت منزلة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها والرسل تقديم مخدوم على خدُم
وأنت تخترق السبع الطباق بهم فى موكب كنت فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شأوا لمستبق من الدنوّ ولا مرقىً لمستنم
خفضت كل مقام بالإضافة إذ نُوديتَ بالرفع مثل المفرد العلم
كيما تفوز بوصل أى مستتر عن العيون وسر أى مكتتم
فحزت كل فخار غير مشترك وجزت كل مقام غير مزدحم
وجل مقدار ما أوليت من رُتب وعز أدراك ما أوليت من نِعم

* * *

وكأننا بالشاعر الإمام البوصيرى يصف عظمة الحدث وصفا مباشرا لما يراه أمامه بالفعل، أرأيت كيف أبدع الشاعر فى تصوير الحدث المعجزة عبر يقينه الإيمانى وشاعريته المؤمنة الفياضة؟!!

ويبقى وصف شوقى لمعجزة الإسراء والمعراج فى قصيدته (نهج البردة) فيقول:

أسرى بك الله ليلا إذ ملائكه ... والرسل فى المسجد الأقصى على قدم
لما خطرت به التفوا بسيدهم ... كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم
صلى وراءك منهم كل ذى خطر ... ومن يفز بحبيب الله يأتم
جُبْتَ السموات أوما فوقهن بهم ... على منورة درية اللجم
ركوبة لك من عز ومن شرف ... لا فى الجياد ولا فى الأينق الرسم
مشيئة الخالق البارى وصنعته ... وقدرة الله فوق الشك والتهم
حتى بلغت سماء لا يُطار لها ... على جناح ولا يسعى على قدم
وقيل كل نبى عند رتبته ... ويا محمد هذا العرش فاستلم

● أرأيت كيف برع شوقى فى التعبير المسلسل والتصوير الذى يفيض حركة وحيوية (أسرى بك الله) ولم يقل كما قال صاحب البردة (سريت) فكان أكثر توفيقا ثم انظر كيف برع فى رسم صورة احتفاء الملائكة والأنبياء بالنبى فى المسجد الأقصى، هذا هو النبى المضطهد فى مكة والذى ضرع إلى الله يشكو ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس إن الله يفتح له أبواب السموات والأرض ويطوى الأرض له طيا ويخرق الناموس بحوله وقوته وتحتفى به الأرض والسماء:

لما خطرت به التفوا بسيدهم ... كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم

● أرأيت شاعرنا كيف نقلنا ببراعة التصوير والتعبير إلى رحاب المسجد الأقصى مسرى رسول الله وثالث الحرمين الشريفين وأولى القبلتين؟ أرأيت كيف يبعث شجوننا تجاه الأقصى الأسير الذى ينتظر المخلص والمحرر؟! يترقب فى شوق

قدوم صلاح الدين فمعذرة أيها الأقصى المبارك لقد طال انتظارك بزوغ الفجر الصادق ولطالما صدع رأسك بشائر الفجر الكاذب من أدعياء البطولة وأشباه الرجال وثق أن الأمة التى أنجبت فاتح بيت المقدس الفاروق عمر ومحرر القدس صلاح الدين لن تعدم المحرر الثانى ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً** ﴾ [الإسراء: ٧].

مشيئة الخالق البارى وصنعته وقدرة الله فوق الشك والتهم ولنردد مع شوقى دعاءه فى آخر قصيدته (نهج البردة) ضارعا إلى مولاه:

فالطف لأجل رسول العالمين بنا ولا تزد قومه خسفا ولا تسم
يا رب أحسنت بدء المسلمين به فتمم الفضل وامنح حسن مختتمِ

* * *